مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 18 العدد01 2022/01/15

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الدين وتشكيل مفهوم الثقافة عند غادامير (تداخل الأنتروبولوجي بالأنطولوجي)

Religion and the formation of the concept of culture from Gadamer (anthropological and ontological overlap)

خاطر شرف الدين*

جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان

charaf.khater13@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/10/11 تاريخ القبول:2020/11/06

ملخص:

حمل هذا المقال ثلاثة مفاهيم أساسية وهي: الدين والأنثروبولوجيا والثقافة، وكلها مفاهيم نحاول فحص ضروب التواشج فيما بينها عند جيورج غادامير (2002/1900) الفيلسوف الألماني المعاصر الذي اشتهر بالهرمينوطيقا الفلسفية، وغرضنا الأول هنا هو تمييز ما نقصده من الأنثروبولوجيا في هذا المقام. ثانيا تحديد الدور الذي لعبه البعد التأويلي الديني في تشكيل مفهوم الثقافة عند هانس جيورج غادامير وفعاليته الأنثروبولوجية الأنطولوجية.

الكلمات المفتاحية: الدين، الأنثروبولوجيا، الثقافة، التأويل، الأنطولوجيا

Abstract:

This article carries three concepts, namely: religion, anthropology and culture, all of which are concepts that we try to examine the forms of interconnection between them according to George Gadamer (1900/2002), the contemporary German philosopher who was known for his philosophical hermeneutics, and our first purpose here is to distinguish what we mean by anthropology in this regard. Secondly, defining the role that the religious hermeneutic dimension played in shaping the concept of culture for Hans-Georg Gadamer and its ontological effectiveness.

keywords: Religion; Anthropology; Culture; Interpretation ; Ontology.

* **المؤلف المرسل**: خاطر شرف الدين، **الإيميل**: charaf.khater13@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مقدمة:

يحمل عنوان هذا المقال ثلاثة أبعاد رئيسة ألا وهي: الدين والأنثروبولوجيا والثقافة، وكلها مفاهيم نحاول فحص ضروب التواشج فيما بينها عند هانس غادامير (2002/1900) الفيلسوف الألماني المعاصر الذي اشتهر بالهرمينوطيقا الفلسفية، وغرضنا الأول هنا هو تمييز ما نقصده من الأنثروبولوجيا في هذا المقام، وفي المقام الثاني تحديد الدور الذي لعبه البعد التأويلي الديني في تشكيل مفهوم الثقافة عند هانس جيورج غادامير.

بيد أن فهم العلاقات بين المفاهيم أعلاه يتم داخل إطار الخطوط العريضة للتأويلية فلسفية، وقد ضَمَّنَهَا غادامير كتاباته المختلفة لعل أهمها على الإطلاق هو "الحقيقة والمنهج" سنة 1960 الذي تحدث فيه عن الأبعاد التأويلية متمثلة في: الدين، الفن، التاريخ، اللغة، وهي محاور مركزية لفهم التجربة الإنسانية أو علوم الروح حسب التعبير الألماني، إذ عبرها يحاول غادامير تجلية تهافت النظرة الأحادية الجانب لعلوم الروح من قبل أنصار المنهج، ففكرة المنهج ألقت بظلالها على تلك العلوم وأفرغتها من حقيقتها وإمكاناتها الأصيلة، لذلك يتطرق غادامير لمشكلة الوعي الجمالي والتاريخي وكذلك ينتقد التوجه الأداتي في اللغة، وفي خضم ذلك يتناول أيضا مفهومي الدين والثقافة ويعتبرهما مهمين جدا للعلوم الإنسانية، ومن هنا مشروعية البحث في طبيعة العلاقة بينهما عند غادامير، لذلك لنسأل ما هي الخصائص التي يحملها الدين لتسهم في مفهوم الثقافة عند غادامير؟ وما مدى علاقتها بأنثروبولوجيا الإنسان وأنطولوجيته؟

1. في حدود التماس بين الأنثروبولوجيا والأنطولوجيا.

1 . 1: الدين والأنثروبولوجيا بأي معنى:

في البداية وجب علينا أن نحدد مفهوم الأنثروبولوجيا التي تشير في الدلالة اليونانية إلى (أنثروبوس) أي الإنسان، و(لوجيا) بمعنى الخطاب أو العلم) فيكون حاصل الجمع بين الكلمتين هو علم الإنسان أو الخطاب حول الإنسان، لذلك ظهر علم الأنثروبولوجيا باعتباره علما يحاول ضبط التشتت والاختلاف المعرفي الإنساني، إذ انقسم إلى علوم يحاول كل منها استيعاب التعدد في الحقول المعرفية (علم الاجتماع، علم النفس، علم مقارنة الأديان، علم الديموغرافيا إلخ (الزين، الغسق والنسق (مقدمة في أفكار ميشال دو سيرتو)، 2018، الصفحات 304- 305).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

لكن يبدو أن قيام خطاب حول الإنسان باسم العلم منذ قيام الحداثة أدى إلى تفرق الخطاب إلى خطابات والعلم إلى علوم، وعلم الإنسان إلى علوم إنسانية، وانتقلت الوحدة الجامعة إلى فُرقة وتشرذم، وبذلك لم يعد الإنسان الغاية التي تهدف تلك العلوم إلى خدمته، وإنما أفضت به تلك النظم المنهجية إلى توسيع الهوة بين القيم المعرفية والقيم الأخلاقية، وقد نتج الانفصال بين الاختصاصات (الزين، الغسق والنسق (مقدمة في أفكار ميشال دو سيرتو)، 2018، صفحة 304)؛ التي باتت كأنها جزر متباعدة تفتقد إلى ماء يصل بينها، وازداد الشرخ بين الإنسان والإنسان، لأن التقنية استثمرت تلك العلوم لا في تجويده لطرق عيشه واتصاله بالآخر، وإنما لأجل قيام الشقاق بين الإنسان والإنسان، واستعباد الآخر والهيمنة عليه.

لتلافي هكذا تشرذم بين العلوم دعا الفيلسوف جورج غوسدروف إلى العودة بالأنثروبولوجيا إلى دلالتها الأصيلة أي كونها خطابا حول الإنسان يهدف إلى أن تكون المعارف والعلوم خادمة لهذا الكيان العاقل، وهي خدمة لا تتم بالانفصال وإنما تتم بالاتحاد والتعاضد بين المعارف قصد الارتقاء بالإنسان إلى تعمير الوجود بالابتكارات والإبداعات التي تخدم الوجود البشري (الزين، الغسق والنسق (مقدمة في أفكار ميشال دو سيرتو)، 2018، صفحة 306)، وهذه الدلالة الجديدة للأنثروبولوجيا تحيد عن مفهوم العلم السلبي إلى الدلالة الأنطولوجية الأخلاقية لوجود الإنسان والتي تجعل الإنسان يعيش بشكل مشترك.

ب. الدين: بالنسبة للبعد الديني فإنه يعتبر من المقومات الحضارية والثقافية للإنسان، فحسب تعريف تشارلز تايلر للثقافة على أنها «ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع» (كوش، 2007، صفحة 31)، بحيث يبرز الدين أو المعتقدات كشكل من الأشكال الثقافية الأساسية في التجربة البشرية، والتي من خلالها استطاع أن يكوِّن خطابا إزاء الطبيعة، وأقام منظومات أسطورية في بدء الإنسانية تفسر مخاوفه وتطلعاته كما أقامت جسور وصله بما سماه الآلهة هذا من جهة، في المقابل نجد الديانات التوحيدية التي تأسست على مفهوم الرسالة الإلهية للإنسان باعتبارها شرائعا توضح له ما استشكل عليه من أمر دنياه وتفسر له ما خفي عنه من أخراه، فيكون الاعتقاد بالإله نابعا من رسالة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الأنبياء والتي توالت وتعرضت للتحريف في أغلب مراحلها، إلى غاية خاتمة الرسالات الإسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

يعتبر الدين إذا حاملا لقسم عظيم من التجربة الإنسانية، بيد أن استعادة للتفرقة أعلاه بين علم الانثروبولوجيا والخطاب الأنطولوجي حول الإنسان يبين لنا حدود التمييز بين علم مقارنة الأديان كعلم أنثروبولوجي قد يؤدي في أحيان كثيرة إلى توسيع الشقاق بين الأديان، مقابل فهم التجربة الدينية الإنسانية باعتبارها محركا صوب وصل الإنسان بعالمه وبأخيه الإنسان، أي على اعتبار أنه مجموع القيم والتشريعات التي تنظم حياة البشر وتسهل سبل التعاون بينهم بما يقرب الأعراف والقبائل والشعوب، لا بما يزيد الهوة بينها ويؤدي إلى الفرقة والتخاصم.

1. 2. علم الإنسان والثقافة عند غادامير: يتغدى مشروع غادامير من الفرق أعلاه بين علم الأنثروبولوجيا وليد المنهجية العلمية التي ظهرت على أعتاب الحداثة، مقابل الخطاب حول الإنسان بالمعنى الأنطولوجي الذي يسعى إلى فهم الإنسان في وجوده وامتداداته المعرفية والأخلاقية أي بما يصله بباقي البشر، فعلى المستوى الأول يعرض غادامير لمشكلة مدى علمية العلوم الإنسانية بالموازاة مع العلوم الطبيعية، وهي مشكلة سيطرت على مجمل القرن التاسع عشر، بل على إثرها وجدت مسألة ما المنهج الذي يحكم علوم الروح (Geisteswissenschaften) في ألمانيا مثلا؟ حيث تقف هذه العلوم على تخوم ثنائية متعارضة: العلمية الدقيقة مقابل النسبية الغير المضبوطة.

أ. نماذج الاكتمال: لقد طُرِحَتْ فكرة احتكام علوم الروح إلى المنهج الاستقرائي المؤدي إلى الموضوعية إذ «يُعْنَى العِلْمُ الأخلاقي أيضا بتأسيس التشابهات والانتظامات والامتثال للقوانين، هذه التي تقيم إمكانية التنبؤ بالظواهر والعمليات الفردية» (غادامير، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، 2007، صفحة 50)، إنه فصل الدَارِسِ عن موضوع الدراسة، وتطبيق للنظرية العلمية على الأشكال الثقافية الإنسانية المختلفة ليصبح المنهج Method مرادفا للحقيقة Truth واليقين، وهذا الدرب من ادعاء الكمال ينتقده غادامير لأنه أفضى إلى كبح بروز الحقيقة في العلوم الإنسانية، وهنا يحضر السؤال الحاسم عند غادامير وهو :هل بمعونة فكرة المنهج يمكن أن نُحَصِّلَ بما يكفي نمط المعرفة الخاص بالعلوم الإنسانية؟» (Grondin, 1999, p. 43).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يبدو أن النموذج المنهجي يجيب بنعم وهو يعمل على الترسيخ المنهجي لادعاء الاكتمال عبر الاحاطة بالتحولات النفسية والسلوكيات الشعورية واللاشعورية للإنسان، وأيضا البحث عن وشائج التكامل وعوامل التكرار في الظواهر الإنسانية وهذا ما يرسخه علم الأنثروبولوجيا مثلا، إننا بصدد الحديث عن منظومة مطبقة Applied system تحمل في بنيتها عُدَّةً من الإجراءات مثل: إنشاء مراكز التوثيق والاستشراف، تكوين الخبراء النفسيين والباحثين الاجتماعيين، جمع العيِّنَات، تحليل البَيَانَات، ضبط الإحصاءات، وتخريج القوانين، وغيرها من التقنيات المعرفية.

لا يُغْفِلُ غادامير الاقتراح الذي قدمه هرمان هلمهولتز Hermenn Helmholtz (1821-1894) في سبيل تمييز الاستقراء في علوم الروح عن الاستقراء في علوم الطبيعة، وكيف أنه في الأولى «يمارس الاستدلال بصورة ضمنية ولا شعورية ويجد نفسه خاضعا لما نسميه بالألمانية "Taktgefuhl" (الحساسية الرهيفة) نوع من الرقة " takt" ومن الحساسية التي تستدعي التعاطف. هذه الحساسية تستند أيضا إلى ملكات الفكر الأخرى مثل خصوبة الذاكرة واحترام السلطة» (غادامير، فلسفة التأويل، 2006، صفحة 157)؛ ورغم هذا التفريق بين الاستقراءين إلا أننا لا نبتعد عن تحكم المنطق في علوم الروح، فهي في تصور هلمهولتز تتطلب استقراءً حتى وإن كان نفسيا، وبالتالي نظل حبيسي دائرة الكمال المنهجي، ولا نتحرر إذا من ربقة مفهوم الاستقراء ومقاصده الموضوعية، وهذا ما لا يقبله غادامير فما البديل الذي يرتضيه؟

ب. ثقافة القابلية للاكتمال: ينتقد غادامير نموذج الكمال العلمي لأنه أفقر العلوم الإنسانية من شرطها الأساسي ألا وهو الحرية والحدث الإنساني المتجذر في الآنية المتجددة والمتدفقة، لأجل هذا النقد يتبنى نمط التفكير الثقافي الخاص بمفهوم البيلدونغ في السياق الألماني، وهو مفهوم له تاريخ طويل في السياق الثقافي الألماني شمل تأثيرها مختلف المجالات: اللاهوت/ السياسة/ الفلسفة/ الفن/ التاريخ/ اللغة، ما يعني أنها الرمز الذي تفهم به التحولات الثقافية الألمانية فهو ليس مفهوما «مميزا وفريدا للرومنسية المبكرة Frühromantik وحسب. بل كان مفهوم البيلدونغ الدعامة الأساسية للتقاليد الألمانية الشائعة ممثلة في: تيار العاصفة والعاطفة، الأنوار، والكلاسيكية» (Bieser, 2003, p. 28) وهذا يقودنا للتساؤل عن الدلالات التي يحملها هذا المفهوم؟

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

لقد عملت البيلدونغ التي تترجم بالتشكيل أو التصوير على إصلاح الأعطاب التي أحدثها التوجه العقلاني الأنواري خاصة في القرن الثامن عشر، وهو التوجه الذي قطع مع كل تفكير تراثي أو أسطوري، فالأنوار انتهت إلى شكل من التثقيف المبتذل الذي يأخذ من العقل والمنهج مبدأ وحيدا ويهمل باقي الجوانب الانسانية، بل غلب المعرفة المضبوطة على القيمة والتكوين الأخلاقي والجمالي للإنسان، ومنه ركزت البيلدونغ الرومانسية على تصوير رؤية جديدة عن الإنسان كما «عملت على استيعاب التناقض الكامن فيها: الثقافة اليونانية، الثقافة المسيحية، الإنسية والأنوار، الخيط الرفيع الجامع بين هذه العناصر هو الاستبطان والاستفراد» (الزين، نقد العقل الثقافي، 2018، صفحة 257)،

لقد استندت هذه البيلدونغ إلى إعادة الاعتبار إلى التشكيل المستندد إلى الغرائز الفطرية، والعواطف والحساسية التي تسهم مثل العقل في وحدة التطور الداخلي للفرد والجماعة وهنا نوع من تجسد الحرية (Bieser, 2003, p. 27) والقابلية للاكتمال مقابل نموذج الاكتمال المنهجي الأنواري، كما اهتمت البيلدونغ بالبعد الفني والقيمي والأخلاقي بدل البعد المعرفي وحده، حيث اعتبرت الرومنسية أن التبرية الإنسانية تتعلق بالتشكيل الجمالي والشعرية وخاصة شعور الحب والمشاعر النابعة من القلب، إضافة إلى البعد الجمالي نجد إعادة الاتصال بالتراث وهو ما جسده يوهان هردر (1744–1803) الذي اعتبره قوى حية وبذلك وجب على «فلسفة التاريخ أن تقرأ في الأزمنة والأمكنة جينيالوجيا هذه القوى النشيطة وترى كيف تتكون وتتكثف، كيف تتعاضد وتتكاثف، ونحو أي وجهة تصبو ثم تعلو في ارتقاء لا يفتر» (الزين، نقد العقل الثقافي، 2018، صفحة 270)؛ إنه ارتقاء نحو البشرية بتعبير هردر عبر الثقاف التراثي لكن ليس في شموله بل بعد تنقيحه، حينها يقودنا نحو آفاق جديدة.

يدعم غادامير الرؤية الثقافية الخاصة بالبيلدونغ، لأنها ابتعدت عن السبيل الابستيمولوجية والأنثروبولوجية العلمية المحضة، بل عملت على مجاوزة واحدية الطرح الأنواري في الفكر الألماني كما عدها «أعظم فكرة في القرن الثامن عشر، وهذا المفهوم هو الهواء الذي تنفسته العلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر حتى لو كانت عاجزة عن إبداء أي تسويغ ابستيمولوجي له» (غادامير، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، 2007، صفحة 57). وبذلك يؤكد غادامير انتساب العلوم الإنسانية إلى هذا الخط من التفكير والنمط الثقافي (أي البيلدونغ) لأن هذه العلوم ليست مغاليق اسْتُنْفِذَ التفكير فيها عندما أَطْبَقَ عليها المنهج منذ القرن السابع عشر، بل على العكس من ذلك تجد علوم الروح مفاتيحها في شكل الثقافة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

المتحركة أي نمط التشكيل الثقافي، حيث وجب أن يعاد فهمها خارج الإطار المنهجي (تيارات الابستمولوجيا والسيكولوجية والوضعية والسوسيولوجيا)، أي تأويلها اعتبارا من وسع الحقيقة التي تستطيع إبرازها فحسب غادامير «حقائق العلوم الإنسانية هي حقائق من التشكيل، والتي تُشَكِّلُنَا بالمعنى التام للمصطلح، إنها تستوقفنا، وتقَوِّمُنَا، وتُحَوِّلُنَا» (Grondin, 1999, p. 44)، هي ليست علوما ثابتة بل متغيرة قابلة للاكتمال.

وفق هذه الروح التشكيلية اهتم غادامير بأعمال أفلاطون، خاصة الطابع التعليمي لدولته والتعليم يحمل هنا دلالة التثقيف أو التشكيل، فغادامير يؤكد على البعد التربوي التكويني الذي يميّزُ كتاب "الجمهورية" لأفلاطون، كما يركز على البعد التعليمي الجدلي في تحقيق الجمهورية، بحيث أن فهم المثل (عالم الأفكار) لا يتم بمعزل عن الواقع، لأن الفكرة تجد تحققها من خلال الحالة العينية التي يبرز من خلالها حدث الحقيقة، أي عبر التطبيق Application.

كما نجد أن جدلية البعد النظري والبعد العملي تقود عند غادامير صوب تحديد طبيعة الثقافة، وأقصد هنا أنه لا يعتبر الثقافة حيازة للمعرفة كما هو الحال مع التخصص العلمي، إذ نكون إزاء العلاقة بين المعرفة العلمية والحكمة العملية، وحسب غادامير الثقافة لا تُعْنَى بالارتقاء الذهني والتحصيل المعرفي، بل هي انخراط أنطولوجي في الكل الإنساني واحتكاك بالآخر، إنها سيرورة الحساسية والتكوين الذي يغتني من كل تجربة، وبالتالي «المثقف، المتكوِّن gebildet ،formé، يعلمنا غادامير بأنه ليس الذي يعرف أشياء كثيرة، أو الذي يعرف كيف ينشر وميض خزان الثقافة الذي يحمله، الأحرى أن نسمي ذلك الذي يعرف كثيرا بالمتحذلق "un pédant" وليس هو الذي نقترح نموذجا للعلوم الإنسانية» (Grondin, 1999, p. 44)، وهذا النوع من الحذلقة هو ما كان يميز السفسطائيين، الذي يشتغلون بالخطابات دون جعل الحقيقة هدفا لهم، ومنه من الذي يقترحه غادامير نموذجا؟

المثقف حسب غادامير هو الشخص الذي لا يكون منغلقا على معارفه، والذي لا يعتقد الكمال التام فيما يعرفه، فاعتقاد الكمال هو نوع من الثقافة أجوف لاقتصاره على تحصيل المعارف، ولعل أهم خصيصة في المثقف حسب غادامير هي أن يترك دوما مسافة مع الاعتقاد في الكمال، أي أن يكون مستعدا دوما للاستماع إلى فكر الآخر، وأن يبقي على قدر من التردد والشك في معارفه، شك هو ما

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يشكل ماهية التي يجيد طرح الأسئلة، ويقصد معرفة جهله، ليبقي على بعض القرارات منفتحة قبل أن يجد لها الحلول.

تتخذ الثقافة طابعا فلسفيا عند غادامير خاصيته التكوين والقابلية على الاكتمال، ووسيلتها التكوينية هي الحوار والجدل إذ «المثقف ليس الذي يبسط معرفة عليا، بل فقط ولنأخذ تعبير سقراط هو ذلك الذي لم ينسى معرفة جهله، هذا هو نموذج الثقافة الذي ميز دوما العلوم الإنسانية، الذي ينتسب للشرط الإنساني» (Grondin, 1999, p. 54)، فاتساع الرؤية عند المثقف الحقيقي يجعله بمواجهة خَصَاصِهِ وحاجته للآخر في تكوينه، وبدون هذه القابلية على التعلم لا مجال للحديث عن الثقافة، والثقافة عند غادامير حركية تتجذر في النشاط الفلسفي القاصد للتعلم والاستزادة، والانخراط في الهم الأنطولوجي الإنساني، فالإنسان فسحة إمكان وقدرة على تجويد رؤاه وتصوراته في شتى دروب الحياة بمعونة علوم الروح ، ولعل الغداء الأساسي لهذا المخلوق المفكر والمؤول هو الدهشة والسؤال اللذان يحركانه ليربط صلة بشتى أنماط الوجود.

ثانيا: إسهام البعد الديني في تشكيل الإنسان:

2. 1: الدين متجذرا بالتناهي: يقر غادامير بالإسهام المثمر الذي تقدمة التجربة الدينة في تشكيل الإنسان، فالدين هو واحد من الأبعاد التأويلية المنتجة مثل مجمل الأبعاد الأخرى، التي إن فهمناها في محض أنطولوجيتها وأولناها باعتبارها خزانا من المعاني المنتجة، تكون فعلا شكلا إنسانيا أصيلا يدعم فهم الإنسان لعالمه.

وفق هذا المسعى نجد العلاقة بين الدين والتأويلية أو الهرمينوطيقا وطيدة حتى أن ظهور هذه الأخيرة هو وليد حاجة دينية لفهم الرسالة الإلهية فأصلها يعود إلى «الكلمة الإغريقية 'Hermeneia' من الفعل ermeneueinH الذي يعني أوَّل أو نقل، ...ويتصل في معنى الهيرمينوطيقا كذلك ب Hermeneuos الاسم الذي يمكن أن يرتبط بالإله اليوناني هرمس. كان هرمس رسول الآلهة، وحامل رسالة القدر بوصفها دليل العالم السفلي» (Chris Lawn and Niall Keane, 2011, p. 73)، وبذلك ولدت التأويلية من اقتضاء تفسير الكلام الإلهي وتكييفه إنسانيا عبر الوسيط ويستوعبها ويطبقها، وبالتالي يحضر دور الوساطة بين عالمين.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

هذه العلاقة بين العالمين نجدها أيضا في مفهوم البيلدونغ الذي يشير غادامير لعلاقته بالتصور المسيحي عن الخلق وخاصة في السياق الصوفي المسيحي، حيث فهم الوجود ارتكز على الدعامة الميتافيزيقية عبر تأويل فكرة الخلق وصدور المخلوقات «وفي الواقع يستحضر ظهور كلمة البيلدونغ التراث الصوفي القديم الذي كان الإنسان طبقا له حاملا في روحه صورة الله التي تشكله، ويجب عليه أن يزرعها في نفسه» (غادامير، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، 2007، صفحة 29)؛ فالإنسان القويم هو الذي يعمل حسب التصور المسيحي على الاتصال بصورة الحق عبر فعل تعمير الوجود، وهذا الفعل لا يمكن أن يتحقق بدون التنبه لخداع الصور الملهية لاحتوائها على الإغراءات الدنيوية والتي تحيد بالإنسان عن صورة الحق، لذلك فالتشكيل والتثقيف الحقيقي هو القدرة على تخليص الذات من قوة الوهم وتربيتها لتتصل بالله.

إنها بالتالي علاقة تأويلية تتغدى من حركية الإنسان وتناهيه، يظهر من خلالها كيف يحمل الإنسان بين جنباته انتماءه للإلهي، ليعمل غادامير من خلال تلك الوساطة التي للفهم على تحويل نمط فهم النص الديني الحرفي الذي اضطلع به آباء الكنيسة ف يالعصر الوسيط وأيضا اللاهوتية الرومانسية في ألمانيا (ق 18 و19) وارتكازهما على الوعي التاريخي، قلت تحويل ذلك الفهم صوب الفاعلية التأويلية المواكبة لحياة الإنسان. فعلى مستوى التأويلية الخاصة بالكتاب المقدس عند آباء الكنيسة نجدها مقتصرة على مطلقية الفهم من خلال وحدة النص، فالنص يحمل معناه في داخله ولا مجال للتأويل فكل شيء واضح، وهذا الفهم هو ما تبناه دعاة حماية الكتاب المقدس من الهرطقة، حيث «أصر كل من إريناوس وترتليانوس على تفسير النصوص وفق تقليد قانون الحقيقة Canon of Truth الذي هو عبارة عن القانون الذي حفظته الكنيسة ويعود إلى تلاميذ المسيح أنفسهم، ومتطابق مع إرثهم بإيجاز إنها هرمينوطيقا ذات سلطة دائمة حيث أن قراءة الإنجيل تعني التموضع داخل تاريخ ونظام الكنيسة» (جاسبر، 2007، صفحة 47).

عملت تلك القراءة الكنسية على فهم النص الديني كبنية جامدة غير متحركة، قامت من خلالها على تحييد سياق الكتابة وذاتية المؤلف وحتى نفي استقباليه القارئ أو المؤول، هذا ما اعتبرته التأويلية الرومانسية هيمنة كنسية متحجرة ومنه على التأويلية أن «تتخلص في يوم ما من جميع تحديداتها الدوغمائية لتصبح حرة وتحقق ذاتها وبهذه الطريقة يمكنها أن ترتفع إلى مستوى أورغانون تاريخي كلي» (غادامير، الخطوط

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الأساسية لتأويلية فلسفية، 2007، صفحة 261). ولتوضيح هذا التوجه نجد استحضار غادامير لفريدريش شليرماخر (1768 /1834) الذي ينقل الفهم من التحجر المطلق إلى نوع من الحرية تقوم على إعادة البناء التاريخي عبر مراعاة الفهم النفسي واللغوي للنصوص وتوسيع هذه التجربة على النصوص الأدبية وغيرها.

النص حسب شليرماخر حمال معنى وجب إعادة تركيبه وليس مجرد معنى ثابت يتم تحصيله في كل مرة، وهذا العمل التأويلي يتطلب فقه اللغة أي طلب الدلات والمعاني، بالإضافة إلى فهم قصدية المؤلفين ومراميهم البعيدة وبالتالي وجوب التنبه لسياق الكتابة، وفي مقابل الفهم اللاهوتي الضيق يحضر شليرماخر ليوسع الفهم عبر تقعيد مناهج تسهل تأويل النصوص التاريخية فهو يدعو إلى البناء الفيلولوجي الذي هو أساسا «التأويل النحوي الذي يتضمن كل خطاب انطلاقا من لغة معطاة ومن علم تركيبها، والتأويل النفسي (أحيانا يقال التقني) الذي يرى في الخطاب تعبيرا عن روح فردية» (غراندان، 2017، صفحة 21)؛ وبالتالي يتم تجاوز سوء الفهم وفق علم التأويل المنظم والمرتب.

يؤكد غادامير أن كلا الطرحين في التعامل مع النصوص الدينية يفشل في الإحاطة بالسعة التأويلية التشكيلية للتجربة الدينية، لأن شليرماخير على سبيل المثال يهمل ويتناسى راهنية المؤول أو المؤمن وتاريخيته، ويبقى عند العتبة الإبستيمولوجية وادعاء الموضوعية في التعامل مع النصوص، وهذا امتدادا للنزعة الذاتية والعقلانية الأنوارية التي تعمل في فكر شليرماخر، وتلك الأرضية الأنوارية عملت على إقصاء الأحكام المسبقة ونفي الأفكار التي لا تعتبر بديهية ومبرهنة.

على النقيض من ذلك عمد غادامير إلى تبيان معالم الأرضية التي يَتَجَذَّرُ فيها الفهم التاريخي للنصوص الدينية، حيث وجوب طلب الأحكام المسبقة المشروعة ومفهوم السلطة الإيجابية وتحريرهما من تشويهات عصر التنوير، فالحكم المسبق (التراث الديني خاصة) قيمته في شقه الإيجابي، وهنا يقوِّم غادامير الطرح الأنوار حيث أن العقل لا ينطلق من فراغ وإنما يتطلب أرضية يشتغل في إطارها هي التراث بمجمله، والنصوص الدينية خاصة، من هنا تكون مهمة العقل في المقام الثاني أي نقدية (Zarader, 2016, p. 210)، ليعمل على تصويب ما لا يصلح من أفهام للنصوص الدينية، وبذلك ينتقد غادامير العقل المجرد الأنواري وينادي بالعقل المصَوِّبِ، لذلك تبنى طرح البيلدونغ التي أخذ بها بعض الرومانسيين خاصة هردر وهمبولت إلخ، فهو توجه يدمج التراث بالعقل المصوِّب لأجل التربية والتشكيل والتثقيف.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

2. 2: التطبيق مسألة تشكيلية دينية: تتعلق المسألة ببحث العلاقة بين **المعرفة والفعل** أي بين المعارف والتصورات الكلية) وتطبيقاتها العملية، وهي علاقة من صميم المشكلة التأويلية عموما والتأويلية الدينية خصوصا، لأنهما ترتبطان بالفهم والتأويل وسبل تحصيلهما، وهي علاقة تظهر من خلال توسيع غادامير للمسألة –من مجال الفهم المنغلق على وحدة النص المسيحي، وإعادة البناء الرومانسية للنصوص عموما–إلى فضاء الحدثية الأنطولوجية التي للفهم والتأويل أي التطبيق.

وهنا حقيقة أن المعرفة التأويلية للنصوص لا تنتج عن فرض تصور مطلق على الجزئي، أي التشريعات والأوامر والنواهي الدينية على المؤمنين وكأنهم آلات تطبق تلك الأوامر، بل إن الوقع يقتضي أن تلك التشريعات تخضع أيضا للنوازل والمتغيرات التي توجه الحالة الجزئية، فالظروف المتغيرة قد تحتم عدم تطبيق التشريع بحذافيره، وهي بذلك حالات تخضع للراهنية التاريخية للإنسان وتحدد درجة التماهي بين الجزئي والكلي الذي يتطلب التفسير والتأويل المتجدد فالفهم «هنا هو دائما تطبيق، لقد بينا منذ البداية أن الفهم بالشكل الذي يتخذه في العلوم الإنسانية فهم تاريخي أساسا، بمعنى أن النص لا يفهم في هذه العلوم إلا إذا فهم بطريقة مختلفة بحسب ما تقتضي المناسبة، ويدل هذا بالضبط على مهمة التأويلية التاريخية» (غادامير، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، 2007، صفحة 420).

يؤكد غادامير أن فهم النصوص ومن جملتها الدينية هو نسبي قد يتغير بمرور الزمن، كما يخضع كذلك لحقيقة النقص والتناهي البشري القائم على النسيان وارتكاب الأخطاء وغيرها من أوجه النقص الت يحاول الإنسان تجاوزها بفضل قابليته على الاكتمال والحرية التي يمتلكها في الفعل من عدمه، لذلك وُجدت الكفارات والدعاء والاستغفار وضروب العمل الصالح، لتعمل على إعطاء المؤمن فرصا والأوبة نحو الطريق المستقيم أي جبر النقص، وإصلاح العلاقة بينه وبين الله، وهذه الحقيقة تجد تطبيقاتها بطرق مختلفة حسب كل ديانة وعقيدة مثالها فكرة الخطيئة والخلاص في الفكر المسحي، والتوبة في العقيدة الإسلامية.

هذا الضرب من التجربة التاريخية والتطبيق يتخلل التجربة الدينية لأنها تجربة متغيرة حسب المعتقدات والشعوب، نموذج ذلك طقوس العبادة اليونانية التي اندمج فيها الفكر الديني بالواقع العملي عبر وحدة الكلمة الشعرية والدينية، وفعل رواية الأحداث الأسطورية من خلال الشعر خير شاهد على قابلية الفهم المتجدد بتجدد القول والظرف، وتأويل معنى ما يقال أي هي علاقة نص بتلقيه في الحالة العينية، ذلك أن الصلوات والقرابين والأعياد المتجددة لعبت دور الوسيط الذي يصل بين عالم خطاب الآلهة المطلق وعالم

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

التلقي البشري المتناهي (غادامير، تجلي الجميل، 1995، صفحة 34)، مما يخلق ألفة وينتزع البشر من أنانيتهم ليتواصلوا عبر الحدث الديني، وهذا يوضح أن التجربة الدينية كانت عملية تطبيقية يتم استشعارها والتحقق منها حال التداخل الوجداني في الاحتفالات والعروض المسرحية وغيرها من الممارسات، مما يجعلها تجربة انتماء وحميمية وحوار وتواصل تتحقق حال التطبيق، لأجل حصول تحول داخلي وطمأنينة روحية.

تبرز النصوص المسيحية حسب غادامير استمرارية الفاعلية التي تصل النص بتأويله، حيث إن النصوص لا توجد مرة وللأبد بمعناها الأوحد، بل إنها تتجدد من خلال فعل الوعظ حيث إعلان البشارة والرسالة عبر فعل الكلمة، ولحظة تأويل وفهم المؤمن لها فتأثير الرسالة عليه ينبع من استشعاره الوعد الذي تحمله وادعائها للحقيقة، وعندها فقط يحصل له أن يفهم معناها ويستشعر قوتها «فرسالة البشارة تكون مطروحة بحرية وتصبح فقط بمثابة البشارة بالنسبة للشخص الذي يقبلها» (غادامير، تجلي الجميل، 1995، صفحة 295)

أما الأعياد الدينية فتعد حالات يتم فيها استشعار الوحدة الدينية المشتركة بين مجموع المؤمنين لتبرز أبعاد النص الديني العملية وتحقق القيم العليا عمليا عبر المشاركة في الحدث الديني، وهذه المشاركة تغني النصوص بمعنى جديد وتسمح بحضورها الدائم والمتجدد، كما أن الأفراد المشاركين في الحدث يرتقون بحالهم الروحية والخلقية ما يشير إلى حوار أصيل متبادل في شكل نموذجي من انصهار الآفاق.

يترجم انصهار الآفاق تلك الحالة من تجسيد مكنون النصوص على الواقع المتحول والمنسجم مع الأفراد التاريخيين، حيث لا إمكان للحديث عن تأويلية دغمائية فأن تقرأ التأويلية اللاهوتية «في النص ما أقحمت هي فيه، فهي في الحقيقة تعرض نفسها للخطر. ولكنها تؤمن أن كلمة الكتاب المقدس تخاطبنا والشخص الذي يسمح لنفسه أن يخاطب هو فقط من يفهم سواء أكان مؤمنا أم شاكا، ومن هنا يحظى التطبيق بالأولوية» (غادامير، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، 2007، صفحة 484)، ومنه فحقيقة النص الديني ومجمل التجربة الدينية تتشكل باستمرار عبر حركية الفهم والتطبيق وهذا ما يجعلها تسهم في مفهوم الثقافة عند غادامير، وهنا يقترب من هردر الذي أقر بأن التراث الديني يسهم في تثقيف الإنسان وهو ما وعاه غادامير لأنه يعتبر التراث الديني خزانا يسمح بتشكيل الذات الإنسانية، بسبب تمفصله بالأبعاد التأويلية كالفن حال الاحتفالات الدينية والعروض المسرحية القديمة التي تجسد مآثر الأبطال،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وكذلك اللغة بالتفصيل بين الكلمة الإلهية والإنسانية عبر حدث التجسد، والذي ينتج عنه توجه لغوي أنطولوجي عند غادامير.

خاتمة:

في الأخير وجب التنبه إلى أن التجربة الدينية عند غادامير تعد نموذجا يسهم في توطين الإنسان في العالم، كما تسهم في تشكيل مفهوم الثقافة عنده، بما هو مفهوم يستند على التشكيل والتلمذة القائمة على وعي تاريخية الإنسان وتجدد فهمه بتجدد النوازل والظروف، ومن ثم يجد الإسهام الديني في مفهوم الثقافة عند غادامير مشروعية أنثروبولوجية، عندما نعتبر الأنثروبولوجيا علوما تتخذ سبيلها لفهم الإنسان، أي أن تكون في خدمة الإنسان وعلاقته بأخيه الإنسان، على الخلاف من اعتبار تلك العلوم تخصصات تقنية متفرقة متباعدة تدعي أنها إنسانية، بينما هي في الحقيقة تراكم معارفا وتقيم تصنيفات علمية ولا تستوعب وسع التجربة الإنسانية في العالم القائمة على الحرية وعلى القدرة الأخلاقية وعلى العيش المشترك. وهذه التجربة تستوعبها الأنطولوجيا والتأويلية كترجمة لقصدية الفهم الإنساني المتحين في كل لحظة.

قائمة المصادر الأجنبية

1. Bieser, F. C. (2003). *The Romantic Impérative (The concept of the early German Romanticism).* London: Harvard University .Press
2. Chris Lawn and Niall Keane. (2011). *the Gadamer Dictionary* (éd. First). New York: continuum international publishing group.
3. Grondin, J. (1999). *Introduction à Hans-Georg Gadamer*. Paris: édition du cerf.
4. Zarader, M. (2016). *Lire Vérité et Méthode de Gadamer (une introduction à L'herméneutique.* .Paris, FRANCE: J. Vrin

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قائمة المراجع باللغة العربية

1) جون غراندان. (2017). *التأويلية* (الإصدار ط1). (جورج كوتوره، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
2) دايفيد جاسبر. (2007). *مقدمة في الهرمينوطيقا* (الإصدار ط1). (وجيه قنصو، المترجمون) بيروت، الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون.
3) دنيس كوش. (2007). *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية*. بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
4) محمد شوقي الزين. (2018). *الغسق والنسق (مقدمة في أفكار ميشال دو سيرتو)* (الإصدار ط1). تلمسان: منشورات مدارج.
5) محمد شوقي الزين. (2018). *نقد العقل الثقافي* (الإصدار ط1). بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد.
6) هانس جيورج غادامير. (1995). *تجلي الجميل* (الإصدار د. ط). (سعيد توفيق، المترجمون) القاهرة، مصر: المشروع القومي للترجمة.
7) هانس جيورج غادامير. (2006). *فلسفة التأويل* (الإصدار ط2). (محمد شوقي الزين، المترجمون) بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم.
8) هانس جيورج غادامير. (2007). *الحقيقة والمنهج* (الإصدار ط1). (حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المترجمون) طرابلس، ليبيا: دار أويا.